1

بيت النقب

ما زلت أذكر ذلك اليوم، كما لو كان بالأمس.

كان يومًا شـديد الحرارة من أيام شـهر آب في غزة. كنا في سيارة سالم ابن خالتـي وكان يقودها بعصبيـة على عادة الناس هناك. جلسـت أمي بجانبـه فيما قعدت أنـا وأخي في المقعد الخلفـي. كان علينا ربط أحزمة الأمان واحترام إشـارات مرور لا تحصى وهو ما لم نعتده في البلد العربي حيث كنا نقيم. لكـن هنا في هذا المكان الذي نزوره، بدا لنا الأمر مؤشرًا على حداثة وتقدم. لقد كنا في إسرائيل!

لم يتوقف سـالم عن البصـق من النافذة. المقـرف! لم يكفّ كذلك عن التذمر والسباب وصبّ لعناته...

– "آه... الإسرائيليون وإشاراتهم الحمراء اللعينة! كما لو أنها الشيء الوحيد الذي يستحق الاحترام في الحياة... مسخرة!"

لم تتفوه أمي بكلمة وعلا وجهها شـحوب مقلـق وحين كنا نوجه لها الحديث كان ثغرها يفترّ في محاولة للرد لكنها لا تنطق حرفًا. كنت وأخي متوترين للغاية وقلبي يخفق بشدة، فها نحن أخيرًا في طريقنا لزيارة بيت والدتنا الشهير وسنتمكن في نهاية المطاف من رؤيته!

سـالم لحظ اضطرابنا بالطبع، كما انتبه لصمت والدتنا وقلقها ما رفع من وتيرة توتره. وبدا هذا في تصرفاته فكان يبصق من النافذة ويعبث بالمرآة ويحرّك مقعده تارة إلى الخلف وتارة إلى الأمام، يشغّل المذياع للحظة ثم يوقفـه، وكل دقيقتين يلتفت نحونا سـائلًا إن كان كل شيء على ما يرام! نعـم! بالتأكيـد كل شيء على ما يـرام. فقط، كنا نتحرق شـوقًا للوصول ونضيق بهذا الطريق اللامتناهي بين غزة وبير السـبع، طريقٌ كلما تقدمنا فيه ازداد شـعورنا بحرقة الجوّ وجفافـه. كانت الصحراء من حولنا وقد تلاشى عبق غزة الحار والرطب وابتعدت نسمات بحرها... آه من بحرها هذا، جوهرتها الغالية...

تابع سالم محاولاته غير المجدية لإخفاء انفعاله المتزايد واهتياجه، وأخذ يتصرف كوحش على وشك الانقضاض علينا. لاحظتُ في الماضي غرابة تصرفاته مع الإسرائيليين، كان يبدو كما لو أنه يهابهم. أدركت أنه غير

مرتاح لهذه الزيارة ويلقي بمسؤوليتها على أمي.

– "بيتـك، بيت أبيك... كل هذا ضاع. ما نفع العودة؟ ما الفائدة؟ لا شيء إلا الألم. جردونا من كل شيء، فلمَ كل هذا؟"

لم تجب، تدرك أنه سيوصلها في نهاية الأمر إلى حيث تريد لذلك اكتفت بتسديد نظرتها المتعنتة والغامضة نحوه.

ها قد وصلنا بير السبع ودخلناها كما شاءت لنا أمي! رأينا اسمها عند مدخـل المدينة على لوحة بالعبرية والعربية والإنكليزية. كانت رؤية تلك الحـروف مكتوبة هكذا بوضوح كفيلة وحدها بهزِّ كياننا. أيقنّا حينها أن أمرًا مهمًّا وغير اعتياديًا ينتظرنا وبأننا سنلمس أخيرا لمس اليد واقعًا لطالما سمعنا عنه وحاولنا تخيله.

نعم هذه مدينة أمي التي ولـدت وترعرعت فيها، المدينة التي لطالما رددت اسمها على مسامعنا: بير السبع... بير السبع.

إذًا، هي موجودة بالفعل!

بدت لنا المدينة حديثة بما لا يقارن مع الجزائر التي نعرفها جيدًا وكذلك مع غزة ورمالها ووحولها التي تركناها لتونا. كانت بير السبع مشابهة لتلك المدن الأوربية التي لم نزرها بل شاهدناها فقط في التلفزيون. أرصفتها نظيفة، ناصعة، حقيقية لا تشبه في شيء أرصفة غزة التي لم تكن في أغلبيتها سوى

كتـلا رملية. أيضًـا، كانت ثمة واجهات جميلة ومرتبة ببسـاطة، وأناس بالشورت والقبعات يتناولون المثلجات، وفتيات بسيقان خمرية وأكتاف عارية يتهادين في الطرقات. كنت في الخامسة عشر من عمري وكان أخي يصغرني بعام، أي في سنّ ننبهر فيه بكل ما هو حديث. أُخذنا بكل ما نراه، بهذا العرض المثير المشوّق المتاح أمامنا... لكني اليوم وبعد مضي سنوات على تلك الزيارة، فإني حين أسـتعيدها وأنا هنا في أوربا لا أقدر حقًا على تفسير شـعورنا آنذاك، فكيف لبير السبع، المدينة الصغيرة ذات الأصول البدوية، أن تترك فينا كل هذا الأثر؟!

أمي كأنها لا تبصر كل ما يحيط بنا، تدور برأسـها في كل الاتجاهات جـلّ همها منصبٌّ على البحث عن شـارع معين، هـذا الذي يقع فيه بيت طفولتها. لكن المدينة تحولت لدرجة جعلتها عاجزة عن إيجاده، فراحت تهمهم غاضبة.

– "الله يخرب بيتكم خربتم كل شيء".

عثرنا عليه في النهاية بعد بحث طويل.

كان يبـدو من الخارج جميـلًا ومتينًا فهو مبني عـلى الطراز العثماني نوافذه واسعة محاطة بحديد مشغول وبابه مصنوع من الخشب وتتوسطه مِدَقّة من النحاس مصنوعة على شـكل رأس رجل عجوز. أمسكتها أمي وقرعت الباب وهي تعضّ على شـفتها السفلى، ما يدل عادة على نرفزتها الحـادة. لكنها لم تكتفِ بهـذا إذ راحت تخبّط الباب باهتياج شـديد بيد

واحدة أولًا ثم باليدين معًا. رمقنا سالم بنظرة شزراء كانت تعني "افعلوا شيئًا، هدئوا أمكما".

اقتربنا منها محاولين تهدئتها وربت أخي برقة على كتفها قائلًا:

– "ماما، هنا بيتهم. لماذا تتصرفين هكذا؟ من الطبيعي أن يخافوا منّا".

لم ترد ورمته بنظرة صاعقة، كان من المؤكد أن لديها الكثير لتقوله، بيد أنها هدأت في نهاية المطاف.

كنا نشعر أن ثمة عيونا تترصدنا من خلف النوافذ، أن هناك من يراقبنا، لعلّ اشياء كثيرة كانت تدور وراء جدران هذا البيت. كنت في داخلي مدفوعة بنوع من مثالية على الطريقة الأوربية وآمل أن نقع على يهود يساريين. "ناس ظراف" يعني، هيك شي! أتخيل نقاشًا بيننا حول "الأرض والبحر والسماء... ولمن تكون كلها؟!!" أتصور أننا سنثير قضية الظرف الإنساني الصعب والقيم وحقوق الإنسان وكونيتها، وسيسردون علي ما عانوه في الماضي وأنا سأقتنع! سيبررون كذلك حقهم بالاستقرار في هذا البيت والإقامة فيه وتوريثه للأحفاد، وبأننا لا نستطيع إلا التعاطف مع آلامهم السابقة، ثم سينتهون بمنحنا "حق" زيارة البيت فهم إنسانيون لدرجة تجعلهم يحترمون هذا الحق ومعه أيضًا حقوق الإنسان..."

كنت شاردة مع أفكاري تلك حين فُتح الباب.

برز منه رجل مرتديًا زيه الكامل! سترة طويلة وقبعة وجدائل...

رجل دين. آه، لم يكن ينقصنا إلا هذا! حين وقع نظري عليه استوعبت فجأة بأنني خلال نقاشي المتخيل مع هؤلاء اليهود اليساريين، لم أشر أنا "الخائنة" بكلمة إلى بيت أمي. هذا "البيت" الذي قد يسمحون لنا بزيارته احترامًا لحقوق الإنسان وعلى اعتبار أن الزيارة حقّ لنا. أشاروا فقط في تخيلاتي إلى "زيارة"... "زيارة" فحسب وكأنهم يشمتون بهذه البنت الخائنة التي أكونها. أما العلاقة بين رجل الدين اليهودي وأمي العنيدة فكانت جدّ واضحة ولا مجال لجدال فيها، يمكن القول بكل بساطة أن أحدهما لا يتقبل الآخر على الإطلاق! في أعماقي كنت أتمنى أن تتوقف الأمور عند هذا الحدّ ولا أدري إن كان سبب شعوري معاكسة أمي أو حمايتها. رغبت ألا يكون ثمة تتمة وأن تتوقف الأحداث بسرعة، نعم بسرعة وفورًا وألا نبدأ نقاشًا عميقًا حول مصيرنا وهو نقاشٌ تعي أمي جيدًا أنه معقد ومضن.

رجل الدين اليهودي شرع بالصياح وهو يتحرك في كافة الاتجاهات. كان طويلًا نحيلًا شاحبًا تعلو شفته العليا حبة سخونة ضخمة من النوع الذي طالما أثار قرفنا أنا وأخي. كان يتحدث بالعبرية ولم نفهم شيئًا من كلامه، فتولى ابن خالتي سالم مهمة الشرح معلنًا أنه ليس لدى السيد أدنى رغبة بسماع أي شيء عنا وأننا نغتصب مقره الخاص وسيدعو الشرطة.

يالسالم المسكين! هو الذي كان يسعى باستمرار للتصرف جيدًا مع الإسرائيليين. قُضي الأمر بالنسبة له! لعله يلعن في داخله هؤلاء المغتربين الذين لا يعرفون شيئًا عن البلد ويأتون مع حنينهم الأبله لينشروا الفوضى هنا! وكان يردد:

– هذا سلوك لا يصح مع الإسرائيليين، لا ليس هكذا!

رغبت بالرد عليه: "ومن ذا الذي يعلم كيف يتعامل معهم يا قريبي العزيز؟ هه، قل لنا، من؟ لا أحد في العالم ولا حتى الأميركان...".

كان الجدال يدور بالعربية، بالعبرية، بالحركات والإشارات... إلى أن تقدمت أمي بغتة وكأن قوة خفية مسّتها، أبعدتنا بذراعها واندفعت بحزم وتصميم في الممر، دفعت اليهودي بقوة نحو الحائط واقتحمت المكان كأنها سوبرمان في طريقه نحو السماء. في البداية جمدنا للحظات وقد أخذ منا الاستغراب كل مأخذ ثم سرعان ما تبعناها راكضين.

وجدنا أنفسنا في الصالون، كانت أمي سبقتنا إليه وخطت فيه عدة خطوات قبل أن تثبت في مكانها بلا حراك وقد ارتسم على وجهها تعبير غريب، كما لو كانت لا تبصر شيئًا إنما تدرك كل شيء. في نظراتها تركيز هائل كأنها تصغي لكل غرض، لكل قطعة أثاث وهي تبثها معاناتها بلغة هي وحدها القادرة على فهمها. كل شيء تقريبًا كان هناك، البوفيه الكبير وطقم السفرة والكؤوس والأباريق والمزهريات...

تعرفت في إحدى الزوايا على مقعد من الخيزران بمسندين، كأنه عرش مهيب، كنت قد رأيته في الصور وأحفظ قصته عن ظهر قلب. إنه كرسي جدي الذي لم يكن لأحد حق الجلوس عليه. حين كان أخوالي الصغار يتسلون أثناء لهوهم بالقعود عليه، كانوا يُعاقبون بضربات العصا أو بشدات الأذن، فقط! فجدي لم يكن يحب الصفعات أبدًا وكان يقول بأنها تحطّ من كرامة

العاطي والمتلقي. لكن الصغار حظوا مرة وحيدة بالجلوس على المقعد وكانت حين استلم الأخ الأكبر فايز شهادة جعلت منه "الشيخ" فايز وأهّلته لاستلام عمل في سلك القضاء الشرعي. اعتبرت المناسبة حينها في غاية الأهميـة وأُحضر للاحتفال بها كوكو الأرمني كبير مصوري غزة، فالتقط صورة للصبيين عثمان وحفص وهما جاثمين على المقعد الشهير، وبالطبع لم يخلُ الأمر من صورة أخرى للشيخ فايز في مكتبه وهو متربع على عرشه كملك مرتدي الثوب واللفة وعلى أتمّ الاستعداد لتسلم منصبه كقاض. الشيخ فايز لم يحقق نجاحًا يذكر في مسيرته المهنية، وكيف يفعل مع كل ما عرف عنه من ميل للخمرة والسهرات والأمسيات الغرامية؟! صحيح أن ذلك كان يتم خفية وبعيدًا عن النظرات، لكن العيون المحمرة بعد سهرة طويلة ماجنـة كانت كفيلة بفضحه وجعله محطّ تهكم الناس من حوله.

لنعد إلى صالون أمي.

في زاوية أخرى منه وأمام أريكة على شكل حرف ل، وضعت طاولة من خشب متين فُرِدَ عليها غطاء مطرز بعناية وفوقه استقرّ طبق دائري رائع من الكريستال حوى أنواعًا من الفواكه الطازجة والمجففة. أمي، التي لم تنطق بحرف لغاية تلك اللحظة، صرخت مستنكرة حين وقع نظرها عليه.

- "حتى طبقنا هنا!"

لم تمر سوى دقائق قليلة بين اقتحام أمي للبيت وهذا المشهد، ربما أربع أو خمس لا غير لكنها بدت لي بلا نهاية. كلنا، حتى ذلك اليهودي

ولسبب لا نستطيع تفسيره، وقفنا كمشلولين أمام هذه المرأة القوية والعنيدة والموجوعة، جمدنا أمامها وساد صمت ووجوم. كانت أمي وكان بيتها، وكنا مسحوقين تحت وطأة هذا التاريخ، تاريخها هي. وأمام هيبة المشهد لم يبق لنا مكان في الصورة ولا وجود، حتى سالم شعر بضآلته وفيما كنت وأخي نسترق النظر إليه آملين أن يلمّح باشارة ما حركة ما، ثبت في مكانه هو الآخر واستغرق في الصمت.

هنا، فوجئنا باقتحام امرأة وهي تصرخ بالعبرية وفي أشد حالات الاهتياج، كانت في حوالي الخمسين من العمر، لكن أمي لم تكترث بها ولا بفهم ما تبربر به بل صاحت في وجهها بالعربية:

– "يابنت الكلب، هذا بيتي! بيت أبي! هذا أثاثي وهذا طبقي".

ثـم تابعت الصياح وهـي تطبق على الطبق بكلتا يديهـا مخاطبة تلك الغريبة الواقفة بمواجهتها بالانكليزية هذه المرة.

- It's mine, Mine, do you know what does it mean. Mine. It's my home, my country..(*)

عند سماعه هذه الكلمات بالذات، دنا سالم الخوّاف مني وهمس:

– "ييه، رجعت لوطنيتها الحمقاء! طالما كانت تحكي عن الطبق، ماشي. لكن، "البلد"؟ لمَ الحديث عن البلد؟! هي خطيئة هنا، خطيئة قاتلة، لا يجوز. على كل حال هذا يكفي الآن، لنخرج من هنا!"

(*) "هذا لي، هذا لي! أتعرفين "ما يعني" هذا؟ إنه بيتي. إنه بلدي!".

حسنا، هذا إن قدرنا على الخروج!

إذ أن أمي لم تكتفِ بما فعلت بل ضمت الطبق إليها بيدين منقبضتين وكأنها بوضعيتها تلك كانت تضمن المحافظة عليه، وبدت متشجنة تمامًا كمن فقد عقله.

تبادلتُ نظرات مرتبكة مع أخي ووقعنا في حيرة من أمرنا لا نعرف ما علينا فعله. كنا نتفحص أقل حركة من حركاتها وننتظر أن تنفجر ويخرج الزبد من فمها وينتشر حول شفتيها. لم يسبق ورأيناها على هذه الحالة، كانت تبدو دائمًا هادئة وعلى شيء من التحفظ. همس أخي:

– "أشعر بالخجل، كما لو أنها مجنونة".

المرأة، التي كانت في الواقع شقيقة مضيفنا، انقضت بغتة على أمي وانتزعت بعنف الطبق من يديها، بحركتها المفاجئة والعشوائية تلك تبعثرت محتوياته وتدحرجت في كل مكان، على الأرض على الطاولة... واكتمل المشهد حين رفعت المرأة بحركة مفاجئة أخرى الطبق فوق رأسها وقذفته على الأرض فتناثر في ألف قطعة.

ساد صمت ثقيل، كنت أردد خلاله بصوت منخفض "يا أرض، انشقي وابلعيني!" عبارة تعلمتها من أمي وكانت تستنجد بها في المواقف الصعبة. أما المرأة الخمسينية فانفجرت بنحيب عجيب، كأن دموعها تسيل من السماء. كأنها بعد شيء من تردد، ناشدت ربها أو لا أعرف من ليأتي لمساعدتها،

فأغاثتها السـماء في نهاية الأمر. توجهت نحو أخيها بوجه مبلل بالدموع وصوت تقطعه حشرجة البكاء وغمغمت شيئًا بالعبرية.

بدا على أمي ارتياح غريب وهمدت كأنها استسـلمت، وخرج صوتها هامسًا وهي تعلّق:

- "ياحرام! كسرت طبقنا الجميل".

سالم، الذي يرتبك عادة في مواقف كهذه ويسعى لتهدئة الأجواء ووضع حد لها، حاول التدخل متخذا نبرة مفتعلة تتناسب والحدث:

- "يالله! انكسر الشر".

لم يعلق أحد على كلماته "القيّمة" تلك، فقد تاه كل منا في أفكاره وهو يحاول إقناع نفسه بأن ما حصل للتوّ كان كابوسًا، مجرد كابوس. لم يمنعنا هذا من ملاحظة تعبير خاطف بالنصر ارتسم على وجهي مضيفينا، كما لو أنهما أدركا بأنهما حققا على غير توقع نصرًا أبديًا في المعركة.

شـعرنا أن زيارتنا يجب أن تنتهي هنا، انسـحبنا عـلى أطراف أقدامنا كاللصوص يغمرنا احسـاس بأننا ندير وللأبـد ظهرنا للحقيقة وخرجنا دون أن نلتفت وراءنا.

في السـيارة كانت الأجواء مشـحونة وخانقة لدرجة كبيرة، لكن سالم مالبث أن اقترح علينا بشيء من تردد:

– "وماذا لو قمنا بجولة في المدينة؟ نجلس في مكان ما. سمعت أنهم يصنعون بوظة لذيذة في هذه المدينة الصحراوية".

لم تعنِ كلماته شـيئًا لأحد وظلت معلقة في الهواء. آه! هذا السـالم! أية مدينة، أية جولة، أية بوظة...؟ مسكين يا ابن خالتي وأنت تسعى بلا كلل لتسوية كل شيء.

كنا نشعر بأننا شخصيات روائية تعيش مواقف خيالية، مع فارق أني وأخي بتنا الآن على دراية بالوضع وشاهدين عليه. سنحمل هذا العبء منذ اليوم وستترك تلك الزيارة الغريبة أثرها على مسيرتنا فيما بعد، هذا ما أدركناه في دواخلنا دون أن نتحدث عنه. نعم، حدث شيء ما خلال هذه الزيارة، خديعة، صفقة ما، عُقدت أمام ناظرينا وكنا متواطئين فيها واجبرنا الطرفين على الموافقة. كان لأمي بيت رأيناه بأم أعيننا. حسنًا! ربما لم نره إلا قليلًا إنما أبصرناه، وهذا البيت اُختلس منها بضربة واحدة، سُحب على نحو نهائي بموجب حكم غير معترف به وثقيل الوطأة. لم يعد ثمة بيت، لقد فقدنا بيت أمي للتوّ وهذه الأم التي كانت تقف في مواجهتنا منذ قليل مازالت على جمودها الآن، فكيف كان عليها أن تتصرف وقد بترنا هذا الرابط الذي يربطها بطفولتها وأرضها وبلدها؟ هذا ما كنا نفكر فيه أنا وأخي.

لم نقم بجولة في المدينة كما كان متوقعًا. سلكنا نفس الطريق الإسرائيلية السريعـة والممتعة للرجوع إلى غزة. كنا نتأمل شـمس الأصيل بضوئها

الواهن وكان بإمكاننا أن نتبادل أطراف الحديث ونمزح، بيد أننا لم ننطق بحـرف. كانت الضجة الفظيعـة التي تصدر عن ابـن خالتي هي كل ما يتردد في السيارة، صوت غريب يُعرف بالشخير الغزاوي وكنا لاحظنا أن الرجال "الغزازوة" يصدرونه حين يصلون إلى سـن معينة. يفعلون ذلك دون اسـتحياء كأنها كانت احتفالية وصولهم لسن البلوغ. أخذت أتبادل النظر مع أخي من وقت لآخر وتعبير بالاشمئزاز مرتسم على محيانا. كنا حريصـين على ألا تضبطنـا أمي لأنها لن توافق عـلى ذلك فهي تصرّ على ضرورة مراعاتنـا الأصول مهما كان الشـخص الذي أمامنا، إنها واجب مقدس علينا ومقياس على ما يجوز وما لا يجوز. إنما، هل احترمت هي الأصول في بير السبع؟!

خلال الأيام التالية كانت أمي قليلة الكلام شاردة الذهن كأنها منقطعة عنـا وعن محيطها. كانت تتصرف كأن شـيئًا لم يكـن وحين تتحدث مع شـقيقاتها وبناتهن والجارات لم تكن تشير على الإطلاق، خلال حضورنا على الاقل، إلى زيارة البيت.

في بعض الأحيان كان صوتها يصلنا وهي تدندن أنغامًا لأم كلثوم وعبد الوهاب. بدا لنا موقفها بعد الزيارة غريبًا وتساءلنا أنا وأخي في أعماقنا إن كانت لا تتعمد أن تبدو على هذه الخفة واللامبالاة، فهي لم تكفّ عن ترديد قصة بيتها كأسطوانة خلال سنوات. وهذه القصة لا يمكنها أن تنتهي هكذا كفيلم تدخلت الرقابة عند نهايته، لقد أصابنا موقفها

بالضيق ولكن التطرق للموضوع كان مستحيلًا بحضورها. وحتى فيما بيننا لم نكن ندري كيف نسرده ولا من أي طرف نتناوله. لقد لُمتُ أمي سنوات بعدها، قلت أنها رمت ببيتها في وجوهنا وقلوبنا ثم تركتنا وحدنا نتجرع هذا السمّ، وها نحن اليوم أيضًا ما زلنا نتظاهر بأننا نسينا ما جرى. لكننا أدركنا بمفردنا فيما بعد أن أمنا كانت تعاني وأن حزنها كان دفينا وكأنها فارقت وأدركت الفراق وهي تكتم النوح والدموع.